الطريق إلى الكعبة

مصطفى محمود

الطبعة الاولى ١٩٧١

● الرسوم الداخلية : محمد حجّي
● صمم الغلاف : الفنان بهجت

الدكتور مصطفى محمود

الطريق إلى الكعبة

دار العودة - بيروت

على جبل عرفات

الجمعة .. الشمس تنحدر الى المغيب على جبل عرفات .

الجبل مزروع بالخيام .. مليون وخمسمائة الف حاج يحطون عليه كالحمام في ثياب الاحرام البيض .. لا تعرف الواحد من الاخر .. لا تعرف من الفقير ومن الغني .. ولا تعرف من التركي ومن العربي .

اختفت الجنسيات .. واختفت الازياء المميزة واختفت اللغات .. الكل يلهج بلسان واحد .. حتى الجاوي والصومالي والاندونيسي والزنجي والاذربيجاني الكل يتكلم العربية .. بعضهم ينطقها مكسرة وبعضهم ينطقها بلكنة اجنبية ... وبعضهم يمد بعض الحروف ويأكل بعض الحروف ولكنك تستطيع ان تفهم من الجميع وتستطيع ان تسمع انهم يهتفون .. لبيك اللهم لبيك .

والذين لا يعرفون العربية تراهم قد التفوا حول

مطوف يرددون وراءه الدعاء العربي حرفا حرفا في خشوع وابتهال .

في البقعة التي كنت اقف فيها اكثر من خمس عشرة جنسية مختلفة في مكان لا يزيد عن امتار معدودة .. التركستان والباكستان وكازخستان وغينيا وغانا ونيجيريا وزنزبار واوغنده وكينيا والسودان والمغرب واليمن والبرازيل واسبانيا والجزائر وسيلان .. كلهم حولي يتصافحون ويتبادلون التحية ويهنىء بعضهم بعضا .

ولولا ان المطوف اخبرني بهذه الجنسيات لما عرفتها.. فالكل كانوا يبدون لعيني وكأنهم عائلة واحدة في مجلس عائلي حميم .

على بعد خطوات كان اكثر من ستين هنديا يلتفون حول مطوف هندي هو الاخر فيما يبدو يقرأ لهم الدعاء العربي من كتاب في يده .. وهم يرددون خلفه الدعاء وهم يبكون وقد تخضلت لحاهم الطويلة الكثة بالدموع .

وهم قطعا لم يكونوا يعرفون العربية ، ولم يكونوا يدركون معاني ما يرددون من حروف .. وانما شعروا بها بقلوبهم فبكوا .

كان كل واحد يشعر انه يخاطب الله بهذه الحروف

وانه في حضرة الله وفي ضيافته وفي رحابه .. وانه يقف حيث كان يقف محمد عليه الصلاة والسلام .. النبي العظيم البدوي الفقير الأمي .. وانه يسجد حيث كان يسجد ويركع حيث كان يركع ويردد ما كان يردده من دعاء .. بذات اللسان العربي .. وفي ذات اليوم .. يوم الجمعة من ذي الحجة .. ولعل ذبذبات صوت النبي واصوات اصحابه ما زالت في الفضاء حوله .. فلا شيء يفنى في الطبيعة ولا شيء يستحدث .

عرفت ان هؤلاء الستين هم من افقر طائفة هندية وانهم جاءوا الى مكة على الاقدام وعلى سفن شراعية وعلى جمال .

وكان زعيمهم يحمل علما عبارة عن خرقة ممزقة .

وبعضهم جاوز الثمانين .. وبعضهم كف بصره .. وبعضهم كان يحمل بعضا .

وكان الكل يبكون بحرقة ويذوبون خشوعا .

كانوا فقراء حقا .

وعلى بعد خطوات كان هناك هندي اخر قال لي المطوف انه مهراجا يملك عدة ملايين .. وكان بذات ملابس الاحرام البيضاء .. وكان يبكي بذات الخشوع .. وكان

مشلولا يحمله اتباعه على محفة .

كان فقيرا هو الاخر حقا .

ومن منا ليس فقيرا الى الله .

ان الملايين لا تعفي احدا من الشيخوخة والعمى والمرض والموت .

ان السيد وخادمه يمرضان بالانفلونزا ويمران بنفس الاعراض .. بل نرى السيد يعاني دائما اكثر من الخادم ويستنجد بعشرات الادوية والعقاقير ويجمع حوله الاطباء فلا يفعل له العلم ولا الطب شيئا .. وكانوا يقولون لنا في كلية الطب على سبيل السخرية .. ان الانفلونزا تشفى في سبعة ايام بدون علاج .. وفي اسبوع اذا استخدمنا العلاج .

والانفلونزا مرض بسيط .. تافه .. هي مثل من الف مثل لضعف الانسان وحاجته وفقره الحقيقي مهما كثرت في يده الاموال وتعددت الاسباب .

من منا ليس فقيرا الى الله وهو يولد محمولا ويذهب الى قبره محمولا وبين الميلاد والموت يموت كل يوم بالحياة مرات ومرات .

وأين الاباطرة والاكاسرة والقياصرة .

هم وامبراطورياتهم آثار .. حفائر .. خرائب تحت الرمال .

الظالم والمظلوم كلاهما رقدا معا .

والقاتل والقتيل لقيا معا نفس المصير .

والمنتصر والمهزوم كلاهما توسدا التراب .

انتهى الغرور .

انتهت القوة .. كانت كذبة .

ذهب الغنى .

لم يكن غنى .. كان وهما .

العروش والتيجان والطيالس والخز والحرير والديباج .. كل هذا كان ديكورا من ورق اللعب .. من الخيش المطلي والدمور المنقوش .

لا احد قوي ولا احد غني .

انما هي لحظات من القوة تعقبها لحظات من الضعف يتداولها الناس على اختلاف طبقاتهم .

لا احد لم يعرف لحظة الذل ولحظة الضعف ولحظة الخوف ولحظة القلق .

من لم يعرف ذل الفقر عرف ذل المرض او ذل الحب او تعاسة الوحدة او حزن الفقد او عار الفضيحة او هوان

الفشل او خوف الهزيمة .

بل ان خوف الموت ليحلق فوق رؤوسنا جميعا .

كلنا فقراء الى الله .. كلنا نعرف هذا .

وهم يعرفون هذا جيدا .. ويشعرون بهذا تماما ، ولهذا يبكون .. ويذوبون خشوعا ودموعا .

سألني صديقي وهو رجل كثير الشك :

ـ وما السر في ثياب الاحرام البيضاء وضرورة لبسها على اللحم وتحريم لبس المخيط .. وما معنى رجم ابليس والطواف حول الكعبة .. الا ترى معي انها بقايا وثنية .

قلت له : انت لا تكتفي بأن تحب حبيبك حبا عذريا افلاطونيا وانما تريد ان تعبر عن حبك بالفعل .. بالقبلة والعناق واللقاء .. هل انت وثني ؟

وبالمثل من يسعى الى الله بعقله وقلبه .. يقول له الله ان هذا لا يكفي .. لا بد ان تسعى على قدميك .

والحج والطواف رمز لهذا السعي الذي يكتمل فيه الحب شعورا وقولا وفعلا .

وهنا معنى التوحيد .

ان تتوحد جسدا وروحا بافعالك وكلماتك .

ولهذا نركع ونسجد في الصلاة ولا نكتفي بخشوع

القلب .. فهذه الوحدة بين القلب والجسد يتجلى فيها الايمان بأصدق مما يتجلى في رجل يكتفي بالتأمل .

اما ثياب الاحرام البيضاء فهي رمز الوحدة الكبرى التي تذوب فيها الاجناس ويتساوى فيها الفقير والفني .. المهراجا واتباعه .

ونحن نلبسها على اللحم .. كما حدث حينما نزلنا الى العالم في لحظة الميلاد وكما سوف يحدث حينما نغادره بالموت .. جئنا ملفوفين في لفافة بيضاء على اللحم .. ونخرج من الدنيا بذات اللفة .

هي رمز للتجرد .. لان لحظة اللقاء بالله تحتاج الى التجرد كل التجرد .

ولهذا قال الله لموسى :

« اخلع نعليك انك بالوادي المقدس طوى » .

هو التجرد المناسب لجلال الموقف .

وهذا هو الفرق بين لقاء لرئيس جمهورية .. ولقاء مع الخالق .

فنحن نرتدي لباس التشريفة لنقابل رئيس الجمهورية .

اما امام الله فنحن لا شيء .. لا نكاد نساوي شيئا.

وعلينا ان نخلع كل ثياب الغرور وكل الزينة .

قال صديقي في خبث : ورجم ابليس ؟

قلت :

ــ انت تضع باقة ورد على نصب تذكاري للجندي المجهول وتلقي خطبة لتحيته .. هل انت وثني ؟

لماذا تعتبرني وثنيا اذا رشقت النصب التذكاري للشيطان بحجر ولعنته ... انها نفس الفكرة .

انها كلها رمزيات .

انت تعلم ان النصب التذكاري مجرد رمز وانه ليس الجندي .

وانا اعلم ايضا ان هذا التمثال رمز وانه ليس الشيطان .

وبالمثل السعي بين الصفا والمروة الى حيث نبعت عين زمزم التي ارتوى منها اسماعيل وامه هاجر .. هي احياء ذكرى عزيزة ويوم لا ينسى في حياة النبي والجد اسماعيل وامه المصرية هاجر .

وجميع شعائر ديانتنا ليست طقوسا كهنوتية بالمعنى المعروف ، وانما هي نوع من الافعال التكاملية التي يتكامل بها الشعور والتي تسترد بها النفس الموزعة وحدتها ..

انها وسيلة لخلق انسان موحد .. قوله هو فعله.. فالكرم لا معنى له اذا ظل تصريحا شفويا باللسان وانما لا بد ان تمتد اليد الى الجيب ثم تنبسط في عطاء ليكون الكرم كرما حقيقيا .. هل هذه الحركة وثنية او طقسا كهنوتيا.

وبهذا المعنى ، شعائر الاسلام ليست شعائر وانما تعبيرات شديدة البساطة للاحساس الديني .

ولهذا كان الاسلام هو الدين الوحيد الذي بلا طقوس وبلا كهنوت وبلا كهنة .

الا تراهم امامك اكثر من مليون يكلمون الله مباشرة بلا واسطة ويركعون على الارض العراء حيث لا محاريب ولا مآذن ولا قباب ولا منابر ولا سجاجيد ولا سقوف منقوشة بالذهب ولا جدران من المرمر والرخام .

لا شيء سوى العراء .

ونحن عراء .

ونفوسنا تعرت امام خالقها فهي عراء .

ونحن نبكي .. كلنا نبكي .

وسكت صديقي وارتفعت اصوات التلبية من مليون وخمسمائة الف حنجرة .. لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك .

وكنت اعلم ان صديقي ما زال بينه وبين الايمان الحقيقي اشواط ومراحل ومعراج من المعاناة .

ما زال عليه ان يصعد فوق خرائب هذا البناء المنطقي الذي اسمه العقل ويستشرف على ينابيع الحقيقة في تدفقها البكر داخل قلبه .. حينئذ سوف يكف عقله عن اللجاجة والتنطع ويلزم حدوده واختصاصه ويدرك ان الدين اكبر من مجرد قضية منطقية وانه هو في ذاته منطق كل شيء .. وان الله هو البرهان الذي نبرهن به على وجود الموجودات لانه قيومها (هو الذي اوجدها من العدم فهي موجودة به وبفضله) فهو برهان عليها اكثر مما هي برهان عليه.. وكيف يكون العدم برهانا على الوجود.. وكيف يكون المعدوم شاهدا على موجد الوجود .

انها لجاجة العقل .. وهي سلسلة من الخرائب المنطقية لا بد ان نمر بها في معراجنا للوصول الى الحقيقة .. وهذا عيب العصر الذي يدعى فيه العقل كل شيء .

وعصرنا للاسف عصر العلوم الوضعية والمنطق الوضعي .. هو عصر الالكترونيات والكهرباء والكيمياء والطبيعة .

والواحد منا في بداية تلقيه لهذه العلوم الوضعية ولفرط انبهاره بها وبمنجزاتها يتصور انها علوم كلية يمكن ان يناقش بها الامور الكلية مثل الوجود الالهي فيقع في خطأ من يحاول ان يقيس السماء بالشبر ويزن الحب بالدرهم .

وتمضي عليه سنوات من التمزق والمعاناة قبل ان يكتشف ان الطبيعة والكيمياء علوم جزئيةتبحث في المقادير والعلاقات واختصاصها هو القضايا الجزئية وهي لا تصلح بطبيعة معاييرها للحكم على الدين لانه قضية كلية .

الدين هو العلم الكلي الذي يحتوي على كل تلك العلوم .. بينما لا يحتوي عليه اي منها .

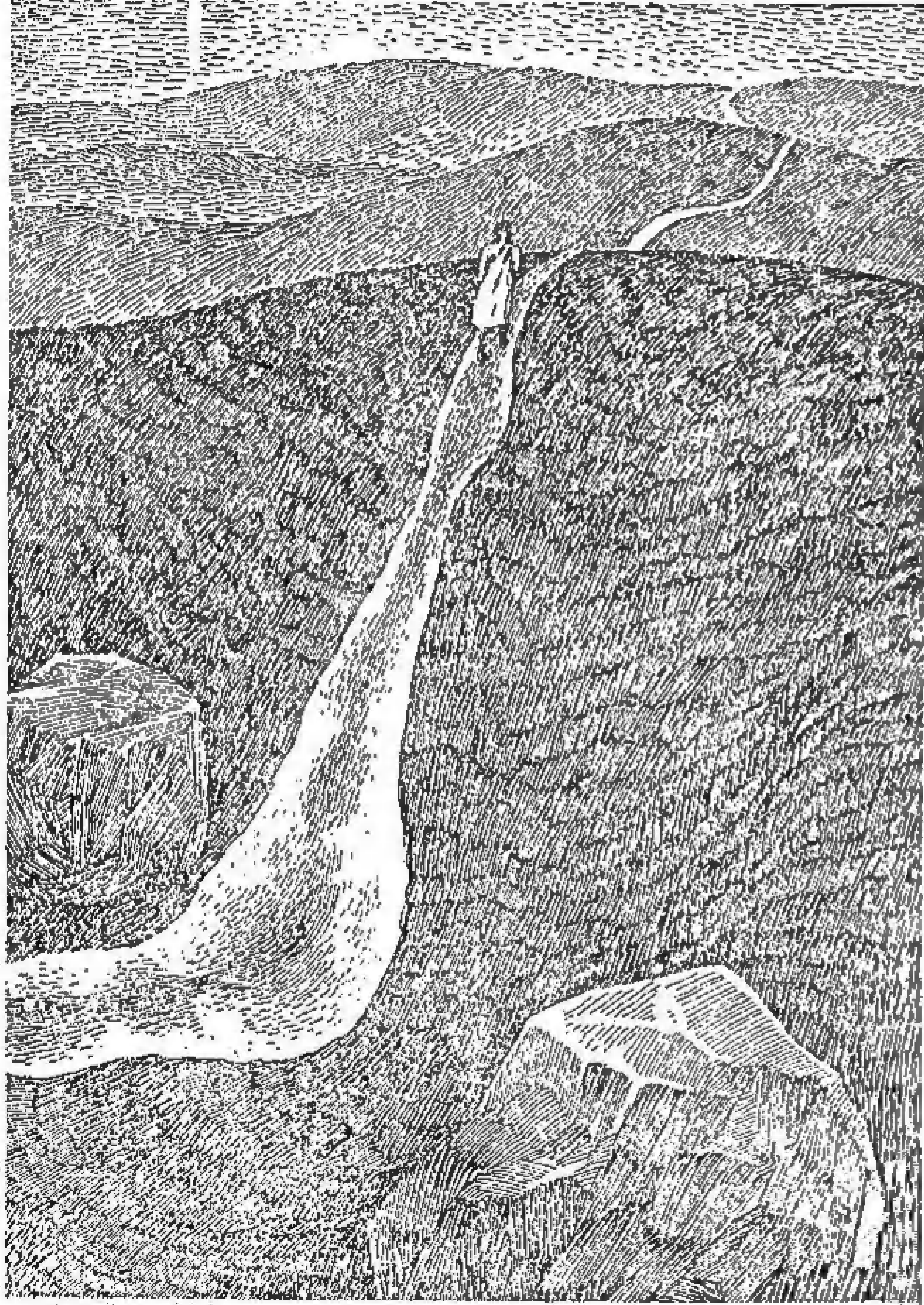
وعندنا نور اخر نستدل به على الحقيقة الدينية هو نور القلب وهدي البصيرة واستدلال الفطرة والبداهة .

هنا نور نستشف به الحقيقة بدون حيثيات .

هنا منطقة في الادراك هيأها الله للادراك المباشر .

وهي مرتبة اعلى من مراتب الشعور العادي .

وكما ان العقل اعلى في الرتبة من حاسة مثل الشم واللمس كذلك البصيرة اعلى في الرتبة من العقل ومن الادراك بالمنطق العقلي الجدلي .



والبصيرة هبة متاحة لكل منا ولكن صدأ العـــرف والتقليد والادعاء العقلي والاحكام الجاهزة الشائعة . هذا عدا الغرور وظلمة الشهوات والرغبات وسعار الاحقـــاد والمطامع .. كل هذه الغواشي ترين على مرآة البصـــيرة فتحجب انوارها الكاشفة .

ويمضي العمـــر والانسان يصارع هذه الرغبـــات ويتمزق ويعاني ويسال ويتساءل ويحفر في داخل نفسه حتى تنهتك الاستار وتنجلي الغواشي ويبدأ يدرك الحقيقة بهذه الرؤية الكلية التي هي هبة بصيرته .

وهنا يبدأ يعرف ما هو الدين .

وقد يرى بالبصيرة من لا يحمل الشهادات .

وقد تعمى بصيرة المتعلم المؤهل في الجامعات .

وجلاء القلب فضل الهي قد يوهب وقد يكتسب، ولا توجد شروط في المعارف الالهية ، وهذا الهندي المسلم الفقير الحافي العاري الغارق في دموعه قد يعرف عن الله اكثر مما نعرف نحن الذين نكتب في الدين والله .

وربما لو سألته عن شعوره لما استطاع ان يشرحه في عبارات مثل العبارات المنمقة التي نكتبها .. وهو امر لا يهم .. فالمعارف العالية قد تعلو على العبارة وقد تعجز

عنها الاشارة .. فلا يبقى الا الصمت والدموع .

ولهذا هم يبكون على عرفات في لحظة لقاء مع النفس والله .. تبدو فيها الكلمات مبتذلة .. واللسان عاطلا ، والعبارات خرساء ، فلا تبقى الا الدموع وهي دموع فرح وحزن وندم وتوبة وتطهر وميلاد .

وهي فجر روحي يعرفه من جربه .

وقد توحي اللحظة الواحدة والظرف الواحد بشيئين مختلفين تماما وربما متناقضين. فحينما كنا نطوف بالكعبة في زحام من الوف مؤلفة كان صديقي يلهث مختنقا وكل ما يخطر له بالمناسبة هو تخيله لو كانت هذه الكعبة في اوروبا في برلين مثلا اذن لاختلف الامر ولطاف حولها الاوروبيون في طوابير منظمة لا يزحم فيهم الواحد الاخر.. بينما كنت انا انظر الى الالوف المؤلفة التي تدور كالذرات البيضاء وارى فيهم الملايين بلا هوية ممن حجوا وطافوا وعاشوا وماتوا .. ارى فيهم ابي وامي .. كانوا هنا يطوفون منذ سنوات في هذا الزحام نفسه .. ومن قبلهم جدي الذي جاء الى هنا على ظهور الابل .. ثم الاجداد .. واجداد الاجداد من قبل الى ايام النبي الذي خرج من مكة مهاجرا وعاد اليها فاتحا.. كنت انظر في الجموع الحاشدة

من منظور تاريخي وفي خناق الزحام نسيت نفسي تماما وفقدت هويتي ولم اعد اعرف من انا .. هأنذا قد مت انا الاخر .. وهذا ابني يطوف ويذكرني وهو يطوف ثم يموت ذات يوم ويصبح هو الاخر ذكرى . كانت لحظة روحية شديدة التوهج فقدت فيها احساسي بذاتي تماما وغبت عن نفسي وامتلأت ادراكا بأنه لا احد موجود حقا سوى الله .. وتذكرت السطر الاول من قصة الخلق .

في البدء كان الله ولا شيء معه .

وفي الختام يكون الله ولا شيء بعده .

هو الاول والاخر .

هو ..

نعم هو ولا سواه .

كانت لحظة من المحو الكامل لكل شيء بما في ذلك نفسي ذاتها في مقابل ملء مطلق وملاء مطلق لوجود واحد مطلق هو الله .

وبالرغم من الاحساس بالغياب الا انه كان احساسا في ذات الوقت بالحضور .. الحضور الشامل المهيمن المالىء لكل ذرة من الشعور .. حضور ماذا ..؟

وأحار في وصف تلك اللحظة ولا اجد الالفاظ ولا

العبارات واكتفي بأنها اعمق ما عشت من لحظات .

انها اشبه بعدة ستائر تفتح متتالية بعضها من وراء البعض .. تفتح ستارة لتكشف عن مسرح صغير هو الواقع الفردي بتفاصيله ثم تفتح ستارة في العمق لتكشف عن واقع آخر خلفي كبير هو الواقع التاريخي يبتلع الواقع الاول بما فيه ثم تفتح ستارة ثالثة في العمق البعيد تكشف عن حقيقة الحقائق التي يبهت امامها كل شيء .

هو احساس ديني يصعب تصويره في كلمات .

هو اشبه بموقف مقاتل على الجبهة .

انه في تلك اللحظة ينسى همومه الصغيرة .

هموم وطنه تبتلع همومه .

وجراح وطنه تبتلع جراحه فينسى مشكلات بيته الصغير ويذوب في مشكلات مجتمعه الكبير .

هناك حضور اكبر ابتلع الحضور الاصغر .

وبالمثل لحظة الوقوف في حضرة الله .

هنا الحضرة العظمى .. حضرة الحق .

وهي حضرة هائلة تذوب امامها الحواس تماما .

يفنى الواقع الصغير .. واقع النفس ومشكلاتها اليومية .. ثم الواقع الزمني المحيط بتفاصيله .. ثم

الواقع التاريخي كله .

ثم يكون فناء النفس ذاتها في لحظة احتواء كامل من ذات عظمى مهيمنة .

هي لحظة صوفية نعرفها في الحب .. ويرويها لنا المحبون .

والحب البشري لا شيء بالنسبة للحب الالهي .

وجمال امرأة لا شيء بالنسبة للجمال المطلق الكلي.

اين كان صديقي من هذا كله .

ما ابعد كلامنا عن الاخر مع ان ذراعي في ذراعه .

كان يفكر ويمنطق ويرتب الحيثيات .

وكنت اذوب حبا وقد قفزت بي اللحظة فوق حاجز العقل وجاوزت بي الحدود والتفاصيل لتضعني على ذروة ارى منها رؤية كلية . وادرك منها ادراكا كليا .

هو الحب .

والدين في جوهره حب .

والطواف للعشاق .

هؤلاء لا يجدون فيه كلفة ولا تكليفا .

وانما يجدون حوارا مؤنسا .. ومكالمة من تلك المكالمات السرية التي تضيء مجاهيل القلب .

وما اكثر ما شعرت به في الكعبة مما لا اجد له كلمات .

الطريق نزولا من عرفة كيوم الحشر ... خمسون الف عربة اتوبيس في كل منها وعلى سطحها وأبوابها مائة راكب مكدسون معلقون بالابواب والنوافذ .. وهـذه الخمسون الف عربة تنطلق نازلة من عرفة الى مزدلفة في لحظة واحدة وتخوض طوفانا من مليون حاج يقطعـون الطريق على الاقدام .

هذا المد البشري الذي يسمونه «النفرة» يتم فـي هدوء ودون حادث واحد ودون مشاجرة. وهو امر لا تفسير له الا ان المشاعر الدينية الفياضة تضع الناس في حالة لياقة نفسية تامة سائقين وركابا ومشاة .. الكل ترفعهم مشاعرهم الدينية الى اقصى درجة من المسؤولية والصبر والتحمل والتراحم والتعاون والمحبةفيحققون هذه المعجزة المرورية دون حادث واحد .. وهو مثل لما يمكن ان يفعله الشعور الديني بالنفس الانسانية وبالمجتمعات .. ولـولا

هذا الشعور الديني المهيمن لكان يمكن ان تكون هـــذه «النفرة» مجزرة ومذبحة بشرية تتلاحم فيها الاذرع فـــي الف مشاجرة ومشاجرة وتدوس العربات الناس ويحطـم الناس العربات وتحطم العربات بعضها البعض .. ولكـن شيئا من هذا لا يحدث.. لا تصاب عربة واحدة بخدش.. وهو اعجاز مفتلحه في النفس البشرية وما يحدث فيها.. وليس في الآلة الصماء .

ومن جبل عرفه الى مزدلفة حيث يصلـــي الناس العشاء مكان صلاة النبي في المشعر الحرام ثم ينزلون الى منى لرمي الجمرات ثم يختمون مراسم الحج بطـــواف الكعبة .

ولم يكن يشغلني بعد ختام الحج سوى شيء واحد هو زيارة قبر الرسول .. ذلك الرجل الأمي الشريـــف البسيط الصادق الامين الذي قال لنا الله انه يصلي عليه وينزل عليه الرحمات هو وملائكته «ان الله وملائكتـــه يصلئون على النبي» ... وأمر كل مؤمن بالصلاة عليه .. «يا ايها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما» .

كنت اريد ان اقف بقبر ذلك الذي يصلي عليه الله. والحق ان صورة النبي لم تبرح خاطري منذ وضعت

قدمي في مكة .. كنت احاول ان أرسم له صورة فـــي خيالي .. ان اتخيل ابتسامته وخطوته ونبرة صوته .

ذلك الامين الذي بلغ الرسالة في وقت لم يكن فيه من سبل الاتصال سوى الابل والعير . ومع ذلك اوصـل رسالته الى سمع جميع الامم من جميع الاجناس واللهجات. حملتها القلـوب . وافتدتها الانفس .. وتسابـق اليهـا الشهداء ـ ودافعت عنها السيوف حتى ابلغتها الى اركان الارض الاربعة . وكأنما كانت انفاسه مهاب الرياح . *

وطول الطريق من مكة الى المدينة كنت غارقا فـــي تأمل متصل . والطريق من مكة الى المدينة يخترق سلسلة من الجبال بعضها جبال كالحة ترابية وبعضها جبـــال صخرية تلمع فيها عروق المرمر والرخام الازرق والاســود والوردي المتعدد الدرجات والالوان .. وبعضها تكســوه غبرة حديدية حمراء تدل على تربة معدنية غنية .

والمسافر يمر على معالم تاريخية شقت لها مكانا في قلوب الناس وحفرت اسماءها في قصة ظهور الاســلام التي تعددت فصولا .

هذه قرية بدر حيث واقعة بدر الشهيرة .. نمــر عليها بعد خمس ساعات من السفر .. والى جوارها مقبرة

القليب حيث دفنت قريش المهزومة قتلاها .

وهنا مكان العريش الذي بناه المسلمون للنبي ليقود منه المعركة .

ثلاثمائة من المسلمين يحاربون الفا . والحديد يقرع الحديد . والنبي قد اخذه الخوف من المصير فراح يصلي ويبتهل ووقف في العريش رافعا يديه يهتف الى ربه .

«اللهم فنصرك الذي وعدتني .. اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد .. اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » .

وما زال يهتف بربه حتى سقط رداؤه . وأخذتـــه خفقة من نعاس فرأى النصر في رُؤيا صادقة .. فخرج يبشر المقاتلين ويتوسط الجيش هاتفـــا .. شدوا .. شدوا .

ويحتفن من الحصى والتراب ويذروه علـــى قريش هاتفا .. شاهت الوجوه .. وبلال يشق جيش الكفـــار كالسهم وهو يصيح .. هذا امية بن خلف راس الكفر .. لا نجوت ان نجا .. ثم يقطـــع راسه .. وهذا معاذ بـــن الجموح يقتلع راس ابي جهل . وهذا حمزة يتبختر بسيفه وسط الغبار ومن حوله تسقط الاشلاء . ويسقط شيبة

وعتبة ابنا ربيعة والاسود بن عبد الاسد المخزومي .

وتفر قريش بخيلها وخيلائها طالبة النجاة .

وهذا محمد يمر على قتلى القليب ويناديهم :

«يا اهل القليب .. يا عتبة بن ربيعة .. يا شيبة بن ربيعة .. يا امية بن خلف .. يا ابا جهل بن هشام .. هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا .. فاني وجدت ما وعدني ربي حقا » .

ويقول المسلمون لنبيهم :

«يا رسول الله أتنادي قوما جيفوا» .

فيقول عليه السلام :

«ما انتم بأسمع لما اقول منهم» .

وفي مكة تقوم مناحة وتصيب ابا لهب الحمى مـــن الغم ويموت بعد اسبوع .. وتجز هند شعرها على عتبة وتصرخ : الدهن علي حـــرام .. فراش زوجي علي حرام حتى أثأر من محمد واصحابه ..

وتمضي تحرض الناس على الحرب .

هذه بدر العظيمة .. وهذه شعابها .. وبطاحهـــا ورمالها وترابها .

وندخل المدينة فنمر بجبل احد .

هنا بقعة اخرى لها تاريخ .

هذا التل الصغير هو «جبل الرماة» حيث اوصى النبي الرماة ان يرابطوا لحماية ظهر الجيش المهاجم .. ولا يفارقوا نبالهم ولا أقواسهم ولو رأوا الجيش يهلك .

وهنا كانت رحى الحرب تدور بين سبعمائة من المسلمين وثلاثة آلاف من قريش .

ولم يكن النبي يريد الخروج في تلك الغزوة.. ولكنه نزل على رأي الاغلبية التي رات الخروج تثبيتا لقانون الشورى الذي اختطه .

وهنا كان جيش قريش .

على الميمنة القائد الفحل خالد بن الوليد (ولم يكن قد اسلم بعد) وعلى الميسرة عكرمة بن ابي جهل .

وهنا تحت اقدامنا كان الدم يسيل .

وكانت هند تمشي صارخة بين جنود الكفار تشجعهم على الاخذ بثأر بدر .

ويها بني عبد الدار
ويها حماة الادبار
ضربا بكل بتار

وهذا ابو دجانه يضع عصابة الموت الحمراء على

جبينه ويخوض بحر القتال اللجب .

وهذا حمزة البطل يصيح أمت .. أمت .. ويضرب بسيفه باليمين والشمال .

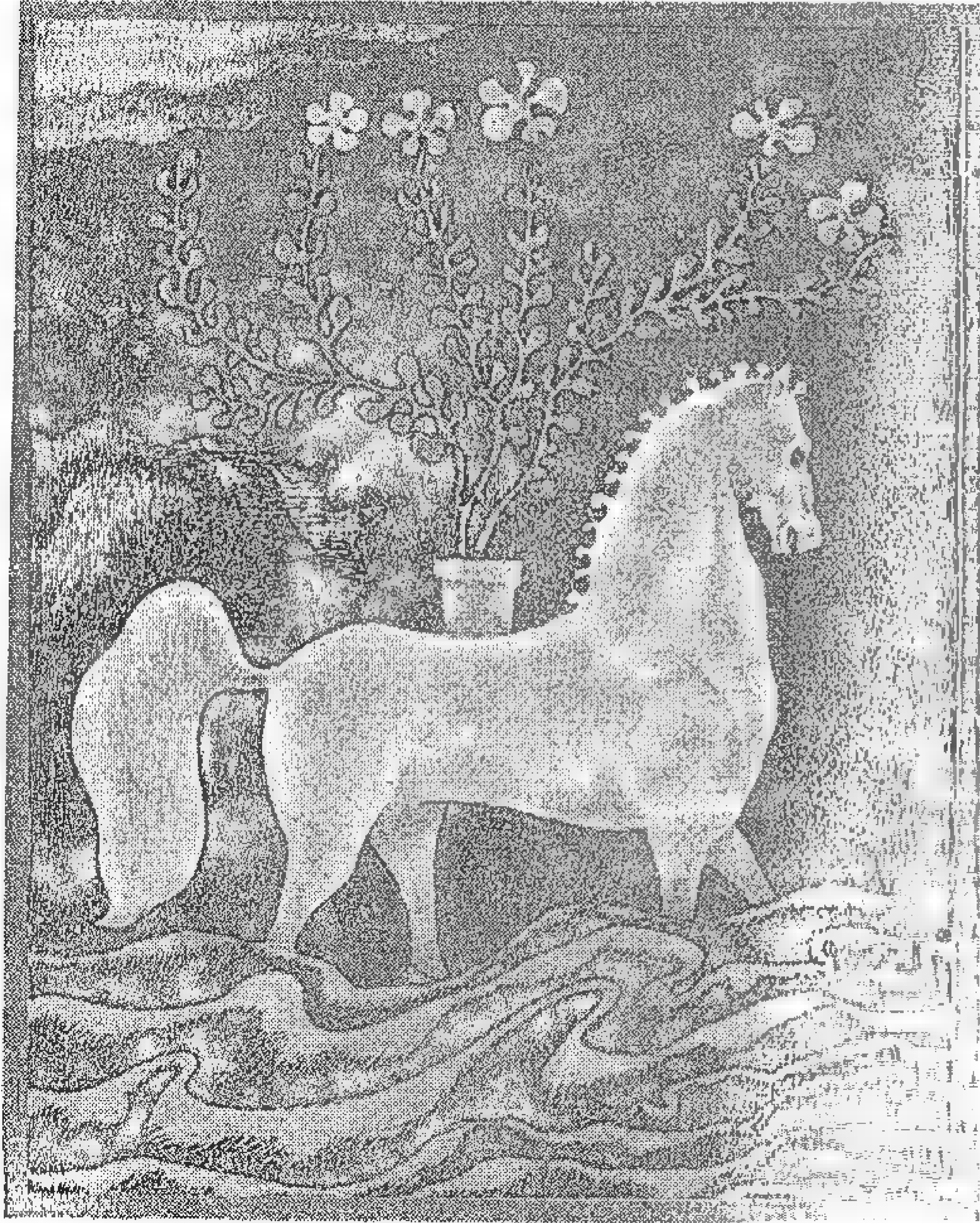
وهذا طلحة بن ابي طلحة حامل لواء اهل مكة من المشركين .. يصيح : من يبارز .. فيبرز له علي بن ابي طالب فيضربه ضربة واحدة تفلق هامته .. وهذه الدائرة تدور على قريش .. فيتراجعون تاركين أكداسا من الغنائم .. وينسى الرماة المسلمون في المؤخرة نصيحة النبي فيتركون اماكنهم ويتسارعون ليهتبلوا الغنائم .. وهكذا ينكشف ظهر المسلمين ويجد خالد بن الوليد فرصته فيكر عليهم .

ويفاجأ المسلمون بالضرب من امام ومن خلف ويتشتت شملهم ويتبعثر نظامهم وتعم فيهم الفوضى فيصير المسلم يقتل المسلم ويصاب النبي فتكسر رباعيته وتجرح شفته وتشج رأسه وتدخل حلقتان من المغفر الذي يستر به وجهه في خده .

ويقع البطل حمزة قتيلا بطعنة من العبد «وحشي» .

ونترك «وحشي» ليصف هذه القتلة الغادرة .

«كنت رجلا حبشيا اقذف بالحربة قذف الحبشة



قلما اخطىء بها شيئا .. فلما التقى الناس خرجت انظر حمزة وأتبصره حتى رأيته وسط المقاتلين مثل الجمل الاورق .. فهززت حربتي حتى اذا رضيت عنها قذفتها عليه فوقعت في بطنه حتى خرجت من بين رجليه .. وتركته واياها حتى مات ثم اتيته فأخذت حربتي ورجعت الى المعسكر وقعدت فيه فلم يكن لي بغير حمزة حاجة .. انما قتلته لاعتق» .

وكانت هند قد وعدته المكافأة ان هو قتل حمزة .. كما وعده سيده جبير بن مطعم أن يعتقه اذا هو قتل حمزه.

ويبلغ من فرحة هند بقتل حمزة ان تبقر بطنه وتخرج كبده فتمضغه .

ويقف النبي على جثة عمه وقد مثل به وبقرت بطنه فيقول في حزن كظيم :

«لن أصاب بمثلك ابدا ... ما وقفت موقفا قط اغيظ لي من هذا» .

ثم يسجى حمزة ببرده ويصلي عليه .

وما زال حمزة حيث دفنه الرسول في العراء الى جوار جبل احد وقد علم مكان الدفن ببضع حصوات .

ان كل شيء في مكانه يحكي القصة .

وتكاد تسمع صلصلـــة السيوف وحشرجـــات المحتضرين .

وجميع من سقط من القتلى مـــن الجانبين معروف بالاسم والنسب والقبيلة.. لم يمح الزمن شيئا. ونتجاوز جبل أحد لنصعد على اكمة حيث عدة تعاريش كان يصلي فيها ابو بكر وعمر وعثمان وعلي وتعرف الان بمساجـــد الصحابة . ثم ننزل الوادي الى حيث مسجـــد قباء اول مسجد بني في الاسلام ثم نبلغ قلب المدينة حيث قبـــر الرسول وحيث يسجى الجسد الطاهر في نفس البقعـــة التي مات فيها في بيته وغرفته . والى جواره ابو بكـــر وعمـــر .

هذا اذن محمد .

ونحن في غرفته .

ومن هذا الباب كان يأتيه جبريل .

وفي هذا المحراب كان يصلي .

وعلى هذه البقعة كان يسجد .

وخلته يقف امامي وراحت مخيلتي ترسم له صورة من الاوصاف التي وصلتنا عنه في كتب السيرة والتـــي وصفه بها اصحابه .

وسطا في الطول .. ربعة .. ضخم الرأس .. مبسوط الجبين .. واسع العينين طويل الاهداب طويل العنق .. عريض الصدر .. ازهر اللون .. مستوى الانف دقيقة .. مفلج الاسنان كث اللحية ذا شعر ناعم شديد السواد .. كبير الكفين والقدمين .. اذا سار القى جسده الى الامام في خطو ثابت وقد سرحت عيناه في تأمل بعيد .

هذا هو محمد البسيط المتواضع :

ورأيته في بيته يغسل ثوبه ويرقع بردته ويحلب شاته ويخصف نعله .

ورايته يأكل مع الخادم ويعود المريض ويعطي المحتاج.

ورأيته وهو يصلي وحفدته يتسلقون ظهره وهو ساجد فيتركهم حتى اذا وقف حملهم واستمر في صلاته.

كان الحنان والحب مجسدا ..

احب الانسان والحيوان . حتى النبات حنا عليه فكان يوصي بالشجر الا يقطع .

حتى الجماد شمله بالحب فكان يقول عن جبل أحد.. «هذا الجبل يحبنا ونحبه» .

حتى تراب الارض كان يمسح به وجهه متوضئا في

حب وهو يقول «تمسحوا بالارض فانها بكم برة» .

هذا هو العظيم الذي كان يكره التعظيم وكان يقول لاصحابه حينما يقفون له : «لا تقوموا لي كما تقوم الاعاجم يعظمون ملوكهم» .

وكان الكريم الذي وصفه اصحابه بأنه ينفق في سخاء من لا يخشى الفقر ابدا .

لم يحدث ان ادخر درهما .

وقد مات كما هو معلوم ودرعه مرهونة عند يهودي.

وعاش لم يشبع قط .. ولم يذق خبز الشعير يومين متتاليين .. ومع ذلك لم يكن يرفض الهدية تأتيه بالشهي من المآكل والناعم من الملبس ولكنه كان يرفض ان يسعى الى هذا العيش اللين او يفكر فيه او ينشغل به .. ولهذا كان يربي نفسه ويروضها على الفقر والجوع والقصد في المطالب والرغبات ليكون المثل والقدوة لما اراده الاسلام.. دين الاعتدال والتوسط .. فلا رهبانية وقتل للنفس .. ولا تهالك واطلاق للشهوات .. وانما توسط واعتدال .. وبذلك ينجو الانسان من سيطرة نفسه ومن سيطرة الاخرين .. فلا تعود لاحد سيادة عليه .. وهذه هي الحرية .. ان يحرر نفسه من جميع المطالب فلا يعود

يسمح لشهوته ان تذله لمطعم او ملبس او مخلوق .
هذا الوسط .
هذا الصراط المستقيم الدقيق أدق من الشعرة بين الافراط والتفريط هو ما انفردت به الشريعة الاسلامية .
وهو ما حققه النبي بسلوكه النادر .
وكان يلخص سنته فيقول :
المعرفة راس مالي والعقل اصل ديني والحب مذهبي والشوق مركبي وذكر الله انيسي والحزن رفيقي والصبر ردائي والصدق شفيعي والعلم سلاحي والجهاد خلقي وقرة عيني في الصلاة .
هذا هو محمد الذي كان خلقه القرآن .
ويطيف بخيالي ذكرى يوم موته .. وقد رقد مريضا بالحمى يلتمس الماء ليبلل به جبينه الملتهب .
ثم وهو يطلب من زوجاته أن يصببن عليه مياه سبع قرب من سبعة آبار لعلها تطفىء نيران جسمه المتقد فيستطيع الخروج الى المسجد .
ثم وهو يخرج الى المسجد متوكئا على ذراع علي بن ابي طالب وعمه العباس ليصلي الى يمين ابي بكر. وقد عقد الامامة لأبي بكر .. حتى اذا فرغ من الصلاة التفت

يقول لمن حوله :
«ايها الناس من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد مني .. ومن كان له عندي درهم فهذا مالي فليأخذ حقه مني » .
وكان ببيته سبعة دنانير فأمر بانفاقها صدقات .
ثم قال :
«ان عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده فاختار ما عند الله» .
وفهم ابو بكر ان عبد الله المقصود هو محمد نفسه وأن الله خيره بين الخلود في الدنيا الى يوم القيامة ثم الفوز بالجنة وبين ان يفوز بجواره .. وانه قد اختار الله وجواره . وانه الموت . فبكى ابو بكر .
والرسول يقول :
«ايها الناس .. سعرت النار .. واقبلت الفتن كقطع الليل المظلم» .
يصف بذلك ما ينتظر الاسلام من بعده .
ثم عاوده الضعف الشديد والهبته الحمى .
ثم تراه في لحظاته الاخيرة وقد وضع رأسه في حجر عائشة وهو يغمغم .. اللهم أعني على سكرات الموت.

وتروي عائشة اخر فصل في حياته :
وجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل في حجري فذهبت انظر في وجهه فاذا بصره قد شخص وهو يقول :
«بل الرفيق الاعلى من الجنة» .
لقد اختار الرفقة مع الله على حياة مخلدة في الدنيا وجنة .
ومات محمد ..
وقام على غسله علي بن ابي طالب وعمه العباس ودفناه حيث مات في غرفته .
وظلت عائشة تسكن الغرفة بجواره .
وكانت تزور قبره سافرة حتى دفن معه عمر فاصبحت تزوره محجبة في كامل ثيابها .
هذا اذن محمد ...
وهذا ترابه .
وهذا تراب اصحابه ...
وهذا بيته ...
وهذه سيرته التي احتدمت دما وعطرا وفداء ونقاء وطيبة وبساطة .

سلام على محمد .
سلام على سيد البشر يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حيا ...
«يا ايها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما» .

الهجرة الى بيت الله

قد يسأل سائل : لماذا نتكبد المشاق لنذهب الى الله في رحلة الحج .. ولماذا هذه الهجرة المضنية .. والله معنا في كل مكان .. بل هو اقرب الينا من حبل الوريد.. وهو القائل انه «قريب مجيب الدعوات» .. بل ان قربه لنا هو منتهى القرب .. فما الداعي الى سفر وارتحال لنقف فوق عرفه ندعوه منها .. وهو القريب منا قرب الدم من اجسادنا .

والسؤال وجيه .

والحقيقة ان الله قريب منا بالفعل واقرب الينا من الدم في اجسادنا ولكننا مشغولون على الدوام بغيره .

انه لا يقيم دوننا الحجب ولكننا نحن الذين نقيم هذه الحجب .. نفوسنا بشواغلها وهمومها واهوائها تلفنا في غلالات مكثفة من الرغبات .. وعقولنا تضرب حولنا نطاقا من الغرور .. وكبرياؤنا يصيبنا بنوع من قصر النظر ثم

العمى .. فلا نعود نرى أو نحس بشيء سوى نفوسنا .. وهذا هو البعد رغم القرب ..

والهجرة على القدمين وتكبد المشقات والنفقات هي وسيلة مادية للخلوص من هذه الشواغل وتفريـــغ القلب لذكر خالقه ولايقاظ الحواس على حقيقة هذا القـــرب القريب لله .

ومن هنا كانت كلمة «عرفه» .. فبعد رحلة مـــن الوف الاميال يتيقظ القلب علـى «معرفه» .. فهـــو «يتعرف» على ربه ويكتشف قربه «ويتعرف» على نفســه ويكتشف بعدها ..

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام في هذا اليوم :

«نعم اليوم يوم عرفه لان اهل الارض يعرفهم اهــل السماء» هي اذن معرفة شاملة من كل الوجوه .

وحينما يفد الحاج بجسده الى البيت يكون عقله قد اشرق على معرفة .. واذا عرف الانسان ربه حق المعرفة فانه سوف يدع الخلاف معه سوف يدع الذنوب ظاهــره وباطنه وسوف يكف عن منازعته في أمر قدره وقضائــه لانه اكتشف كامل عدله وحكمته ..

وسوف يدع الخلاف بينه وبين الخلق فيكف عنهم

اذاه ويحتمل اذاهم ويترفق بهم ويشفق عليهم .

وسوف يدع الخلاف بينه وبين نفسه ويصل الـــى حالة من الوحدة فيقول ما يبطن ويفعل ما يقول فيصبح ظاهره باطنه وقوله فعله .

وهذا هو الانسجام مع النفس والكون والله ..

وانعقاد الصلة بين الروح وخالقها .

وبلوغ السكينة التي لا تزلزلها الجبال .

والسعادة الروحية بالقرب .

يصف لنا معروف الكرخي رجلا بلغ هذه الحـــال فيقول :

رأيت رجلا بالبادية يمشي بلا زاد .. فقلت له .. الى اين تريد .. قال لا ادري.. قلت هل رأيت رجلا يريد مكانا لا يدريه .. قال انا هو .. قلت فأين تنوي .. قال مكة .. قلت تنوي مكة ولا تدري اين تذهب .. قال نعم وذاك لانـــي كم مرة اردت ان اذهب الى مكة فيردني الـى طرسوس وكم مرة اردت طرسوس فيردنـــي الى مكة .. قلت من اين المعاش .. قال من حيث يريد .. يجوعنـــي مرة والطعام حاضر ويشبعني مرة والطعام غائب .

وحال صاحبنا هو حال من انعقدت صلته بالله ..

فهو لا يعرف لنفسه ارادة الا ما يريد به خالقه ولا يتزود الا بالتقوى وليفعل به الله ما يشاء .. فهو قد علم انه لا عبرة بالطعام .. فقد يوجد الطعام بوفرة ويوجد معه المرض الذي يصد عنه .. وقد يوجد الكفاف ويوجد الشبع .. وقد يوجد الصوم ومعه الاكتفاء المشبع بصحبة الخالق والائتناس به .

ولا يفهم من هذا تواكل .. لان الرجل يصف ما بينه وبين الله وليس ما بينه وبين الناس .. ولو انه وجد بين الناس شرا لقومه بالسيف .. فهذا الرجل نفسه هو المقاتل ابو ذر وامثاله .. وهو نفسه الذي يثور على الحاكم الظالم.. فالامتثال لله شيء غير الامتثال لعباد الله بل هو عكسه ونقيضه فخادم الله هو اول من يثور على عباد الله دون خوف ..

والخائف من الله لا تساوي عنده الدنيا شيئا فهو اول من يضحي بها وبنفسه تحت ظلال السيوف في سبيل كلمة حق .. لان الله عنده هو الحق .. وعشق الله هو الموت في سبيله .

وهذا هو توكل الاسلام وهو غير تواكل الكسالى الشحاذين من مفترشي الارصفة .. وهؤلاء ليسوا مسلمين

اصلا .

وليس كل من يتمتم :

«قل هو الله احد» بمسلم موحد .

والمهم ماذا تقول اعماله ..

اذا كان يعتقد حقا ان الله احد لا سواه هو الضار النافع فلماذا يمد اليد الى غيره ولماذا يتزلف ولماذا يتملق.. ولماذا يكدس المال والعقار وهو يعلم ان الله هو المالك الوحيد للارض وما عليها وهو الوارث للكل .. ولماذا يكذب والله سميع ولماذا يسرق والله بصير ولماذا ينافق والله حسيب ولماذا يخون والله رقيب ولماذا يهرب والله شهيد ..

والتوحيد اعمال وليس تمتمة وحمحمة .

والشكر اعمال وليس «الحمد لله» على اللسان .. يقول الله لآل داود ..

«اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور»

لان المقصود بالشكر الاعمال الدالة على الشكر وليس التمتمة .. اعملوا آل داود شكرا .. اعملوا ..

والقرآن سياق متصل مستمر .. لكلمة اعملوا .. يبدأ بكلمة «اقرأ» للعلم ..



وبعد العلم يكون العمل على مقتضى التوحيد .
وهذا هو الدين ..
قل : لا اله الا الله واستقم على معناها .
وهذه هي رحلة الهجرة الى الله .. والحج والصلاة والصيام صورتها البدنية .
والحج في معناه خروج .
خروج من اسمائنا الى اسماء الله .
وخروج من اعتدادنا بانفسنا الى الاعتداد به .
وخروج من العبودية للاسباب (المال والولد والارض والعقار والمنصب والسلطة والنفوذ والجاه) الى عبودية له وحده باعتباره سبب الاسباب .
وخروج من حولنا وقوتنا الى حوله وقوته .
وخروج من ارادتنا الى ارادته ومن رغبتنا الى رغبته
يقول نبينا محمد عليه الصلاة والسلام :
اللهم بك انتشرت وبك آمنت وبك اعتصمت . اللهم بك اصول وبك اجول .
اللهم بك اصبحت وبك امسيت ولا فخر لي .
ويقول عن الحج :
«من خرج يريد الطواف خاض في الرحمة» .

وتفسير الرحمة ان الله يجذب همة عبده اليه ويعصمها من التفرقة .

ويقول عن الركوب للسفر :

«فاذا ركب الحاج الراحلة في الظاهر يشهد في السر ان الله هو الذي يحمله» وهي ذروة في التوحيد ، فهو لا يعود يرى الناقة او القطار او الطائرة وانما الله هو الذي يحمل المسافر على اسبابه وقوانينه .. تختفي الاسباب ليظهر المسبب ويختفي الخلق ليظهر الخالق .

وهكذا تكون كل خطوة بالقدم ترافقها خطوة بالقلب الى مزيد من التوحيد .. ويكون مع طي الابعاد طي داخلي للصفات فيقترب العبد بصفاته من صفات ربه فيكون الرحيم الكريم الحليم الودود الرؤوف الصبور الشكور ما استطاع .. وهو صعود ومعراج لا نهاية له .. لان كمال الله لا نهاية له .

وهكذا يقطع المهاجر الى الله مرحلة بعد مرحلة حتى يصل الى الميقات فيفنى عن نفسه ويموت عن صفاته ويصبح حاله في الظاهر والباطن حال من يحيا بالله وحينئذ يحق عليه الغسل ولبس ثوب الاحرام على العري فهذا هو ثوب الميت المولود .. وهو ثوب من قطعتين رمزا

لستر العورة الظاهرة وستر العورة الباطنة .. والحياء هنا على وجهين حياء من الخلق وحياء من الحق .. حياء من سوء الخلق الظاهر الذي تعرفه الناس وحياء من العورة الباطنة التي لا يراها الا الله .. ومن هنا كانت الخرقتين الرمزيتين .

اما النحر والذبح فهو في حقيقته ذبح للنفس ورغباتها وشهواتها واهوائها .. وقد افتدى الله النفس بذبح الضحية .. فتضحي ببعض مالك رمزا لقتل شهواتك وهوى نفسك .

اما تقبيل الحجر الاسود فهو تزود من غائب فانت تضع شفتيك حيث وضع النبي شفتيه .

والحكايات عن اصل الحجر الاسود والكعبة كثيرة.. فهي بيت العبادة الاول اتخذه آدم وارشده جبريل الى مكانه .. وحينما غرقت الكعبة في الطوفان استودع الله الحجر في جبل ابي قبيس .. وظل الانبياء يطوفون بمكان الكعبة حتى جاء ابراهيم فأقام قواعدها واعاد جبريل الحجر الى مكانه .

وفي عام مولد النبي كانت غزوة الفيل المعروفة وهدم الكعبة كما انه في عام ٣١٧ هجرية هجم ابو طاهر القرمطي

على مكة وقتل وسبى ثم اقتلع الحجر الاسود وحمله معه الى الاحساء .. وقد تبرأ عبد الله المهدي من فعل أبي طاهر ومن اخذه الحجر الاسود وقتله الحجيج فبعث اليه برد الحجر الاسود ولكنه لم يستجب وبقي الحجر ٢٢سنة ثم نقل الى الكوفة عام ٣٣٩ هجرية ومنها اعيد الى مكانه في البيت .

ويرد بعض المؤرخين اقتلاع القرامطة للحجر الاسود الى محاولتهم ابطال الحج وهدم الاسلام واظهار عبادة النار ويرى اخرون ان الصراع كان سياسيا بحتا وكان المقصود منه محاربة عقيدة اهل السنة ..

فالكعبة لم تسلم اذن من التخريب والهدم والسلب والنهب ... وعبر التاريخ لم يبق فيها حجر على حجر .

لم يبق فيها الا مكانها .
فهي رمز
ولا يصح تقديسها الا رمزا
وشأنها شأن القرآن حينما يقول عنه الله
«لا يمسه الا المطهرون»

فلا يكون المقصود هنا «المصحف وورقه» .. لان المصحف وورقه مادة شأنها شأن كل المواد يجري عليها

المطب والفساد .. فاذا جرى البلى والفساد على الورق لا يكون في ذلك مهانة للدين .

وانما المراد هنا المعنى العميق .. «لا يمسه الا المطهرون» .. اي لا يمس معاني القرآن ولا يفهم اسراره الا النفوس المطهرة من اهوائها .

وبالمثل تقوم الكعبة كرمز .. لا كحجارة .

والحج والطواف والذبح والرجم وعرفه رموز .

فاذا تجاوز تقديس البقعة الى تقديس الحجر خرج المؤمن عن ايمانه وسقط الى حضيض الشرك والوثنية وما هكذا مراد الله بالكعبة .

والذي يسأل لماذا يكون الطواف سبعة اشواط والرجم سبع حصوات .. نقول له ولماذا لا يكتمل نمو الجنين الا في الشهر السابع ولماذا يولد ميتا اذا نزل قبل السابع ولماذا تكتمل النوتة الموسيقية بالدرجة السابعة فلا تكون النوتة الاعلى بعد ذلك الا جوابا للنوتة الاولى .

انه سر في بناء الكون المادي والروحي انه سباعي التكوين وان السبعة هي درجة الاستواء والتمام .

والنفس البشرية بالمثل سبع درجات . اسفلها النفس الامارة ثم تليها النفس اللوامة ثم النفس الملهمة ثم النفس

المطمئنة ثم النفس الراضية ثم النفس المرضية ثم النفس الكاملة .

ولهذا يكون الطواف سبعة اشواط والرجم سبع حصوات والسعي سبع مرات عن الانفس السبع .

والسعي بين الصفا والمروة هو رمز لتاريخ الوجود بين المحو والاثبات .

في البداية كان الصفا .

كان الله ولا شيء معه .. الخواء والمحو المطلق .

كان الازل وما سبق لنا في علم الله قبل ان نوجد وقبل ان يخلق الزمان .

ثم كانت المروة .. حينما نبع الماء .. وخلق الزمان وتدفق الوجود وقامت الحياة .

وكان فضل الله في الابد كما سبق فضله من قبل في الازل .

والسعي بين الصفا والمروة هو شهود الفضل في الحالين .

وهو الانتقال من الحقيقة الى الشريعة للجمع بينهما في القلب .

من الكلمة التي سبقت في الازل .

الى التكليف القائم في الزمان .

والسعي رمز لاجابة الامر والتلبية .

والصوفي فيما يرمي من حصوات على ابليس .. يرمي عيوب نفسه ويرمي الدنيا .. ويرمي الاسباب ..

وهو حينما يذبح الضحية يذبح نفسه الموافقة للشيطان .

وحينما يحلق رأسه يحلق الكبرياء عن عقله .

فهو يعلم ان الكنز الحقيقي الذي يستحق ان يجهد في تحصيله هو كنز البراءة .. البراءة من الحول والطول والقوة والغرور والكبرياء .. لا حول ولا قوة الا بالله .. هي الكنز ..

لا وجود حق سواه ..

والكل هالك ..

فيلزم التواضع بل الفناء في الحضرة الالهية .

واذكر فيما اذكر الان ما كانوا يحكون لي عن جدي وانا صغير وكيف انه حج سبع حجات وكان الحج في ذلك الزمن البعيد منذ مائة سنة على الاقدام وعلى الابل وبالبحر في سفن شراعية بدائية وفي الحجة السابعة يروي الجد اهوالا ... عاصفة هبت على الحجيج وهم في عرض

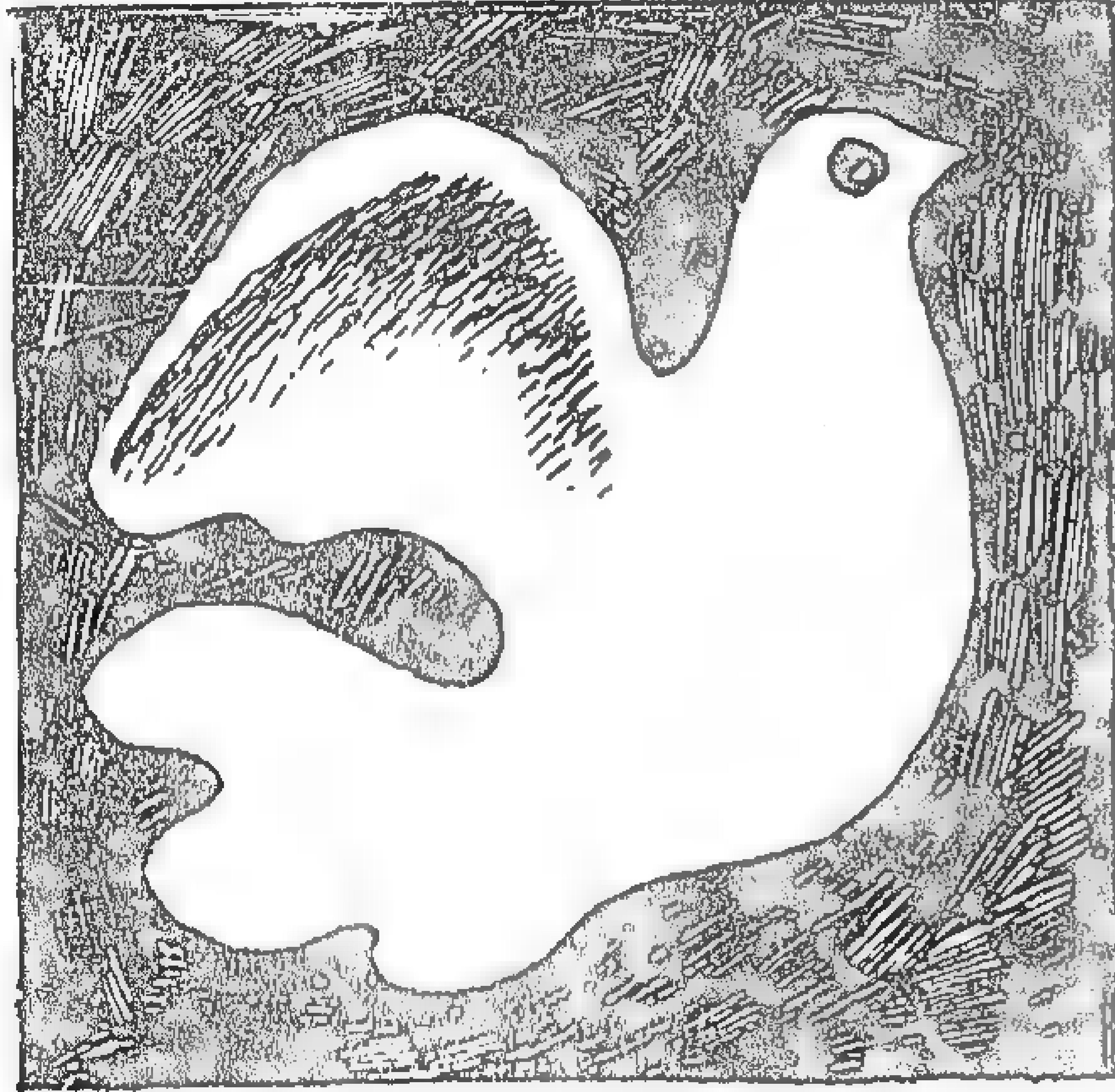
البحر واقتلعت الشراع وحطمت الدفة والكل يصرخ ويتضرع ويستنجد والمركب تدور في الدوامة كالفلك الدوار والموج المتلاطم يلف الجميع .

ثم يروي كيف تفسخت المركب الى الواح ابتلعتها اللجة في لحظات وكيف افاق ليجد نفسه سابحا على طوف خشبي وامامه جراب الزاد وكانوا يسمونه في تلك الايام «الذهاب» .. كل حاج كان يطلع الى الحج ومعه ذهابه الخاص وبه ما يلزم من المؤونة والادوات والثياب .

وكان امرا عجيبا ان يهدأ البحر وتقلع الرياح وتنتهي العاصفة وينجو وحده ومعه ذهابه بهذه الطريقة التي تبدو كالمعجزة .

وتدمع عينا الجد ويومض بصره الكليل وكأنما يرى شريطا سريعا من اللقطات الرهيبة .. ويروي كيف قضى ليلتين في البحر ثم انتشله مركب شراعي آخر قاصدا الى الحج .. وكيف اتم حجته السابعة ثم عاد بسلام .

ويروي كيف كان الموت يترصد الحاج في كل خطوة في البحر وفي البر وفي الصحاري .. وبين الحر المحرق والرمال والعطش اذا ضل طريقه او ماتت راحلته .. وعلى ايدي قطاع الطرق اذا القى به سوء حظه الى عصبة



من عصاباتهم .. او بمرض معد في زمان لم يكن يعرف شيئا اسمه طب وقائي او يسمع عن لقاح للكوليرا او التيفود .. وكانت الرحلة تطول الى ستة شهور وسبعة شهور وسنة وكان الخارج اليها مفقودا والعائد مولودا .

وكان يختم قصته مبتسما بفمه الخالي من الاسنان .

– ورغم كل هذه الاهوال فقد حجيت سبع حجات وها انذا اموت بينكم في الفراش كما يموت الكسالى من العجائز لتعلموا يا اولادي ان كل شيء بامر الله .. وانه لا البحر يغرق ولا المرض يهلك ولا نار الصحاري تحرق وانما هو الله وحده الذي يصرف الآجال كيف يشاء .

اذكر الان قصة هذا الجد الطيب وتطوف بذهني تلك الصور وانا اضع قدمي في الطائرة لاصل جده في ساعتين وفي ساعة ثالثة اكون في الحرم اطوف بالكعبة ثم في الساعة التالية اكون صاعدا الى عرفات وبعد غروب الشمس اكون نازلا الى منى لرمي الجمرات ثم طواف الافاضة ثم تنتهي كل المناسك في امان .

واتذكر السرب الطويل من خمسين الف عربة تحمل نصف مليون حاج وتصعد كلها في وقت واحد في عدة طرق دائرية حديثة الرصف .. وكل شيء يتم في سرعة

ونظام ودون حادث وقد تناثرت وحدات الكشافة لتنظيم المرور .. وعلى الجبل تراصت مستشفيات كاملة التجهيز لعلاج وعزل اي حالة اشتباه .. وطـــوال ساعات الليل والنهار تطوف الرشاشات لقتل الذباب والبعوض في اماكن توالده . وتطوف فرق اخرى لجمع القمامة وحرقها .

وبين مكة والمدينة يمتد اوتوستراد املس كالحرير تنزلق عليه العربات في نعومة وينـــام الراكب في حضن كرسيه في استرخاء لذيذ .

ما ابعد اليوم من الامس .

وما اكثر ما نتقلب فيه من النعم .

وكلما احاطتنا النعمة ازددنا لله هجرانا .

اين ايمان اليوم .. من ايمان النبي العظيم منذ الف وأربعمائة سنة وهو خارج في غزوة تبوك علـى راس اثني عشر الفا من المسلمين في شهـور القيظ المحرق ليخوض في رياح السموم والحرور القاتلة سبع ليال يتهدده العطش في كل خطوة .. وقد ترك من خلفه الامان والظل الظليل والراحة في خيام زوجاته .. ليلقى الله وليبلغ الرسالة .. وليحارب من ؟!.. الروم .. الذين احتشدوا على الحدود بمئات الالوف .

واليوم ترتفع حرارة الجو بضع درجات فندير جهاز التكييف ونغلق ابواب غرفنا لا نبرحها لان الخروج الى الشارع مجازفة غير مامونة .

ما ابعد اليوم من الامس حقا .

وما افدح ما خسرنا حينما خسرنا الايمان .

يحكون لنا عـــن الحلاج الذي كان يقف في شوارع بغداد هاتفا .. انا الله .. سبحاني ما اعظم شأني .. يـا خلق الله ما في الجبة غير الله .. وكيف تصيد له قضاته هذه الكلمات وامثالها وحكموا عليه بالاعدام بتهمة الكفر .

ويعتذر الصوفية عن الرجل فيقولون أن مثـل هذا الكلام لا يصح ان يؤخذ على علاته .. فالحلاج صوفي من اهل المواجد والاحوال ..

وهو لم يكن في طوره حينما كان ينطق الكلمات وانما كان في حالة من الوجد والحب والوله ، وقد بلغ به حبه لله الى ذروة فناء في محبوبه فما عاد يدرك لنفسه وجودا وغاب تماما عن نفسه فأصبح الله هو الذي يتكلم علـى لسانه فيقول انا الله ..

ويسمون هذه اللحظة لحظة الشهود ... أو التجلي حينما يتجلى الله على قلب عبده فينسحق العبـد ويفنى

ويصبح عدما ويصبح الحضور لله ولا سـواه والكلمة لله ولا سواه .

وشأنه في ذلك شأن المجذوب المسلوب اللب والفؤاد والعقل ... والصوفي كذلك يجذب الى الحضرة الجلالية جذبا لا حيلة له فيه فيرفع الى حال من الرؤية والى جرعة من الحق اكبر من طاقته فتفقده العقـل والقدرة وتذروه ترابا مثل الجبل الذي اندك دكا وموسى الذي خر صعقا .

وتمتلىء كتب الصوفية بمثل هـذه المواقف وبمثل هذه المواجد والحالات وتستفيض في وصفها .. ولا نملك حيالها الا التحفظ الشديد .

ورأيي ان هذا الجانب مـن الصوفية هو واد كثير المهالك .. ومزلق خطر .

واخطر ما في هذا المزلق انه يمكن ان يجر الصوفي الى فكرة وحدة الوجود .. وهي الفكرة التي تقوم عليها الفلسفة الهندية والتي تقول بوحدة الخالق والمخلوق وان الله حال في مخلوقاته متحد بهم .. وانه هو وهم واحد.. فهو القاتل والقتيل والسكين وهو الذي خلقهم معا فـي وقت واحد .. وفي جراب واحد.. بمثل ما يقول الحلاج.. ان الله في الجبة .. وهو كلام اذا مددناه علـى استقامته

بالطريقة الفلسفية ينتهي بنا الى نفي وجود الله لا اثباته .. فكل ما نعترف به حينئذ هو مجموع ما نرى مـن وجود نعتقد ان هو في جملته هو الله .. وهي عبارة مهذبـة للايمان بالوجود الموجـود ونفي ما عداه اي نفي الله في ذات الوقت .. ولهذا تلتقي الفلسفة البوذية والهندية مع الفكر المادي .

واستبعد ان يكون بوذا لو انـه كـان نبيا بحق ان يكون قد قال هذا الكلام .. وربما يكـون حاله كحال المسيح الذي شوه اليهود تعاليمه وزيفوا اقواله من بعده وادعوا انه قال انا الرب .. انا الله .

ولهذا يحرص الصوفية كلما ذكر الحلاج على توضيح اقواله بهذه المذكرة التفسيرية التي يقولون فيهـا انه كـان غائبا عن نفسه حينما كان يتكلم .

واهم من هذه المذكرة التفسيرية في نظري ان نحاول فهم الله كما قدم لنا نفسه في القرآن .

والله في القرآن هو المتعالي .

هو متعال على خلقه كما يتعالى الصانع على صنعته وكما يتعالى الفاعل على المفعول .. وهو ليس في « وحدة وجود » مع صنعته وليس متحدا بها ولا حالا فيها .. كما

تصنع انت الموتور فلا تكون متحدا بـه ولا حالا فيـه .. وانما تكون متعاليا عليه .. لو كان للموتور لسان ولو انه تكلم وقال لن اتحرك .. فانك تقول له بل تتحرك وتوصل اسلاكه بالكهرباء فتديره رغم انفه .. فانت متعال عليه .. وانت القاهر بالنسبة له .

وبالمثل الله في القرآن هو القاهر فوق عباده .

و «فوق» هنا لا تعني المكـان وانما تعني فوقية في الرتبة .. لان الله متعال علـى المكان ايضا .. وهو ايضا متعال على الزمان فهو لا يتحيز فـــي حيز ولا هو يتزمن بفترة .. ولهذا كان الاول والآخر والظاهـر والباطن .. الاول قبل الزمان وقبل الوجود لانهخالق للزمان والوجود.. والآخر بعد انتهاء الزمان وانتهاء الوجود ، لانه الباقي بعد الكل . وهو الظاهر . وليس معنى ذلك انه الحلاج او غير الحلاج وانما المقصود بكونه «الظاهر والباطن» .. ان الظاهر هو فعله .. والباطن ذاته .. وكل ما نرى ويظهر لنا ويجري علينا هي بعض افعاله .. فكلمة الظاهر هنا مقصود بهـا وجه الشمول .. الظاهر اليـــوم وبالامس وعبر القرون الماضية والقرون الآتية كل ذلك فعله . ثم من قبل ذلك هو كائن فهو الاول ومن بعد ذلك يكون فهو الآخر .

والاتحاد بالله لا يقول به الاسلام لانـه غير ممكن .. وانما هو يقول بالقرب والبعد والجمع والفرق .. فهنـاك المقربون مثل الانبياء والشهداء والصديقـين .. وهنـــاك المبعدون مثل الكفار .

والصالحون مجموعون على الله .

والمجرمون مفرقون عنه .

وهذا هو الجمع والفرق .

اما الاتحاد والوحدة والحلول فهي امور يتنزه عنها الله .. فهو العلي المتعالي عن هذه الصفات .

والله في القرآن هو الاحد .. والفرق بـين الاحد والواحد ان الاحد لا ينقسم ولا يتجزأ وليس لـــه بعض او نصف .

ولهذا فهو «السلام» لانه لا ينقسم على نفسه ... ولانه يجمع الاضداد في تكامل لا تناقض فيه .. فهو المعز المذل الباسط القابض الرافع الخافض النافع الضار .. هو جامع هذه الاضداد دون تناقض ودون تصارع فيجمع في ذاته النفع والضر والجبروت والرحمة في وحدة سلام لا تقبل القسمة .. وهي ذروة في الكمال لا تصـل اليها افهامنا .

وقد نفهم نحن هذه الوحدة الداخلية بعض الشيء حينما نتوحد نحن ايضا في داخلنا .. فتكون نية الواحد منا مثل قوله مثل فعله فيكون واحدا قلبا وعقلا وعاطفة وعملا .. وهو ما نصير اليه بالتوحيد وعبادة الواحد والتزام الطريق .

والله في القرآن هو الحي وما سواه هالك او صائر الى هلاك .. واذا كنا نحيا اليوم فانما نحيا به بمدده فهو الحي الذي به الحياة فاذا انقطع مدده لم يبق لنا من وجودنا الا العدم .

وهذا معنى كلمة «قيوم» اي انه يقيمنا .. واننا به نقوم كما ان الافلاك والنجوم ممسوكة بقبضته جارية بقوانينه فهو قيومها .. وهو قيوم كل شيء .. قيوم هذه الحياة ، وقيوم الحياة الاخرى حينما يقيمنا من الموت فلا يمكن ان يقوم اي شيء او يوجد الا بفضله .

وهو البصير بلا بصر والسميع بلا سمع والمتكلم بلا كلام وبلا حروف .. فالله لا يبصر بعين كما نبصر نحن ولا يسمع باذن ولا يتكلم بلسان .. وانما الله يبصر بذاته ويسمع بذاته ويتكلم بذاته بلا ادوات وبلا حروف وبلا لغة .. وكلمة الله روح وارادة ومشيئة يقول لنا الله في

القرآن ان المسيح «كلمته القاها الى مريم وروح منه» فالمسيح كلمته كما ان آدم كلمته .

وهو الخالق البارىء المصور .

الخالق في الملكوت حيث خلقنا ارواحا بكلماته وعلمه.

والبارىء حينما اعطى تلك الارواح رخصة الوجود كما يعطي الملك براءة الوسام فيصبح للمواطن الحق في ان يلبسه والرخصة في حمله .. وهو رمز لاطلاق تلك الارواح من قبضته .

والمصور حينما انزل تلك الارواح الى الدنيا بامره وصور لها قوالبها في الارحام .. «يصوركم في الارحام كيف يشاء» .

وهو النور .

ونور الله هو ما يقذف في الضمائر والسرائر وهو نور الفطرة والبديهة ونور العقل الذي يكشف به الحق من الباطل .. ولا يقصد به نور الشمس او الكهرباء او النجوم فكل تلك الانوار ظواهر مخلوقة مصيرها الى الانطفاء .

وهو الصمد من الصمود والثبات والاستقرار حيث كل شيء من حوله يضطرب ويتغير ، وهو الصمد الذي لا يتغير ولا يضطرب كالمرساة وسط البحر يموج من حولها

البحر ويضطرب ولا ملاذ للسفن من هذا الاضطراب الا اللجوء الى المرساة واللواذ بها ، وهو لهذا الصمد الذي يصمد اليه ويلجأ اليه من دوامة الخيالات والاوهام والاضاليل التي اسمها الدنيا .

والصمد بمعنى المصمت المتدامج .. فكل شيء مخلخل له جوف الا هو .. والمادة كلها مخلخلة والذرة مخلخلة وجميع مكونات الذرة مخلخلة لانها تركيبات من اجزاء مآلها العطب والفساد والانحلال .. ما عدا هو .. الجوهر الفرد .. الذي لا يتألف من اجزاء ولا عناصر ، المصمت بلا جوف .. الاحد الصمد .

وهو الرحمن من مطلق الرحمة .. فيرحم بالعذاب وبالعقاب كما تضرب ابنك المذنب رحمة له وتأديبا .

وهو الرحيم بالمعنى الخاص والخالص للرحمة فيمنحها خالصة لاحبابه .

وهو اللطيف اي الخفي الشديد الخفاء في اساليبه فهو يفعل فيخيل لك انك انت الذي تفعل ويخترع فيخيل لك انك انت الذي تخترع لانه احال عليك الاسباب والهمك القوانين واعطاك المواد الخام وأعطاك العقل المبتكر .. اعطاك

البحر والخشب والهمك قوانين الطفو فاخترعت السفينة وهي في الحقيقة من خلقه .

«وله الجواري المنشآت في البحر كالاعلام» — ٢٤ — الرحمن .

«وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بامره» — ٣٢ — ابراهيم .

ولكنه يعمل من وراء حجاب الاسباب فيخيل اليك انك انت الذي تعمل .

«وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى» .

وهو يفعل ذلك بلطف وخفاء واستسرار لا يدرك .

وبين كونك مخيرا وكونك مسيرا خيط دقيق كالشعرة لا يبين .

فانت مخير في النية والضمير والسريرة .. ثم هو في الخارج يجري عليك الاسباب والمقادير لتخرج ما تكتمه وتتلبس بحقيقتك .

«والله مخرج ما كنتم تكتمون» — ٧٢ — البقرة .

وهذا غاية اللطف والخفاء .

في هذا البحر المليء بالخفايا يخوض الصوفية ولهذا تكثر بينهم المهالك ويضل منهم الكثير ويختلط على الواحد

منهم الحال في لحظة الوجد والجذب فيقول «انا الله» .

ولهذا نصح بعض الائمة من المسلمين بتجنب طرق الصوفية .. وقالوا في ذلك ان النبي الذي امرنا جميعا بان نتخذ منه اسوة لم يعرف عنه حال الجذب ولا كان من اهل المواجيد ولم يذكر لنا التاريخ انه راح مرة في غيبوبة الحب هذه ولا كذلك عيسى ولا ابراهيم وهو الخليل الذي كان يكلمه الله كما يكلم الخليل خليله .. وحينما خر موسى صعقا عندما طلب رؤية الله كان ذلك من الله تحذيرا وعقابا لان موسى طلب ما لا يجوز طلبه .

وهؤلاء هم الانبياء اهل القدوة والاسوة والاتباع .

والمؤمن الصالح في الاسلام هو رجل عامل وليس رجلا معتزلا متأملا في الخلوات .. ولو كان ابو بكر وعمر صوفيين من طراز الحلاج لما قام للاسلام بنيان ولما ارتفعت له اركان شداد .

ويرد الغزالي على ذلك فيقول ان الصوفي بالفعل ليس هو النموذج العام الذي يطلب من المسلم اتباعه .. وعامة المسلمين غير مندوبين الى الصوفية .. والصوفية في النهاية هم خاصة الخاصة وقلة القلة من القادرين المؤهلين على الجهاد الاكبر بترويض النفس ومخالفة الهوى والسلوك

في بحار الغيوب واستطلاع الاعماق والاسرار .. وقد اراد الله ان تكون كثرة الناس من اهل الغفلة ليشتغلوا بعمارة الدنيا .. واستصفى القلة وقلة القلة لنفسه ..

والنبي عاش الصوفية والعزلة في مرحلة غار حراء التي استمرت اكثر من اربع عشرة سنة .. واقواله واحاديثه تشهد على الجانب الصوفي في شخصيته .

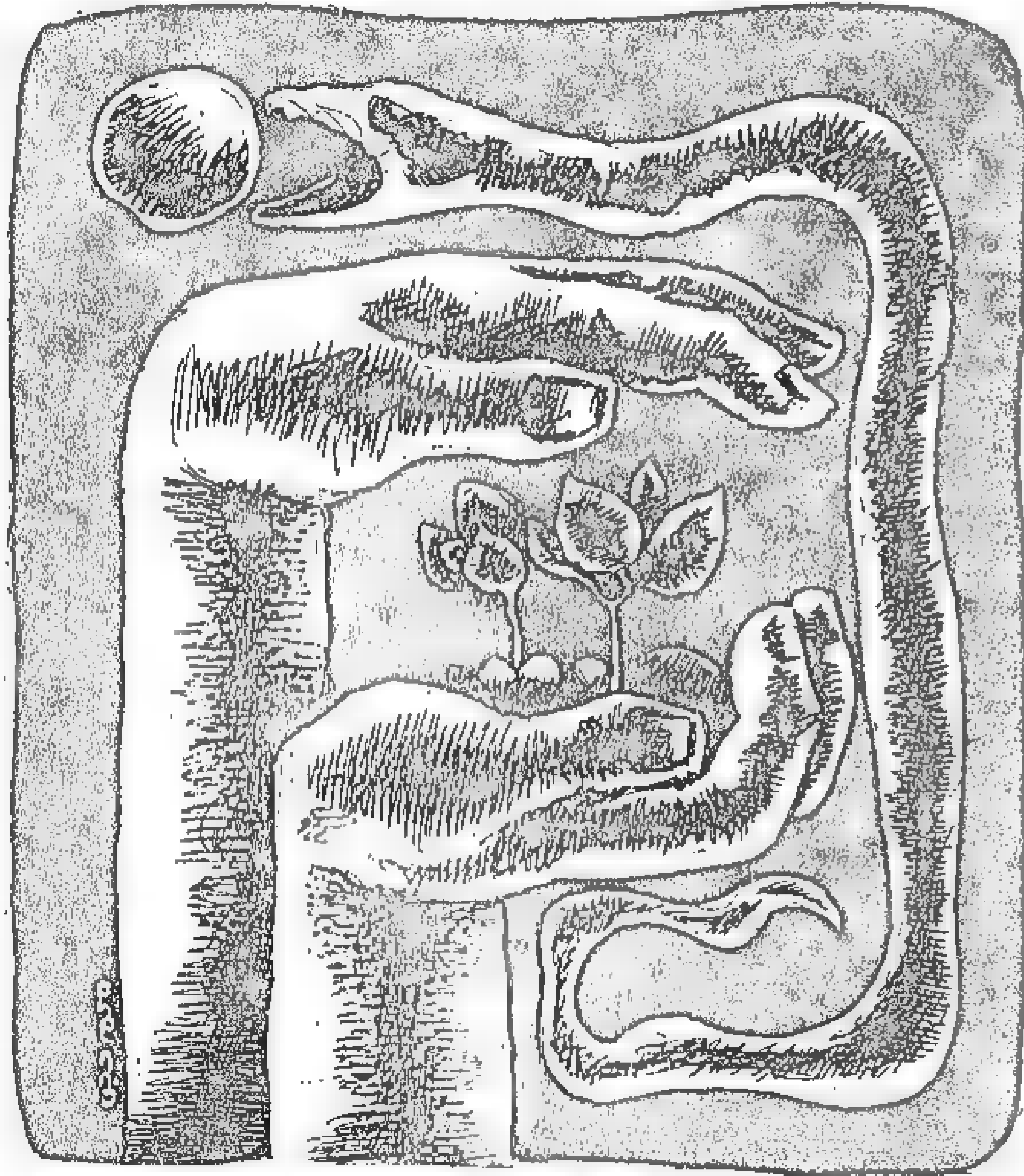
وبالمثل نجد هذا الجانب الصوفي واضحا في رجل مثل علي بن ابي طالب .

ونجد عيسى يعتزل الناس في خلوة تأمل مع نفسه يقضيها في البرية قبل ان يعود فينزل للناس .

ونجد موسى في خلوة الاربعين يوما ينفذ مشيئة الهية وشرطا للتأهل والاستعداد ليصل الى اللياقة والصلاحية الروحية لنزول الالواح عليه .

ان الجانب الصوفي كان دائما جزءا لا يتجزا من النبوة وانما اختلف الانبياء عن غيرهم في كمال شخصياتهم فجمعوا بين الفكر والعمل .. وبين العزلة عن الناس والنزول الى الناس .

وهذا الكمال لا يتيسر للكثيرين .. وانما نجد في الكثرة طغيان جانب على جانب .. فنجد من تطغى على



شخصيته خصائص العمـــل ومن تطغى علـى شخصيته خصائص العزلة والتأمل .

ووجود الصوفي المتأمل والكاتب كالغزالي وابن عطاء الله والجيلي لا يمنع قيـام رجل الفعـل والعمل والقيادة كعمر وابي بكر وخالد بن الوليد .

وانما هـو التنوع الضروري والطبيعـي للشخصية الانسانية كما تتنوع بصمات الاصابع .. ولا يحق لنا ان نصادر قيام نوع ونوجب قيام نوع .. بحجة ان هذا مع الاسلام وهذا ضده .. فانها تكـون مصادرة باطلة حتى من ناحية العقيـــدة .. فلم يخل القرآن مـن اللمحات الصوفية .. فهو في اكثر من مكان يصف الدنيا بانها لهو ولعب وانها حصاد الغرور ويحضنا على الزهد في بريقها.. وهي نظرة صوفية .

وهو في عالم الشهادة لا يرى مشهودا الا الله وافعاله ويقول لنا .. «اينما تولوا فثم وجه الله» .. ويأمرنا ان نشهد بان لا اله الا الله .. وبان لا مشهود بحق سواه .. ولا موجود بحق سواه .. وهي نظرة صوفية .

ومن اسماء الله انه .. «الحق» .. وما سواه باطل. وهي نظرة صوفية .

الصوفية اذن في جوهر الدين وليست ابتداعا في الدين .

ويصح ان نسميها درجة تخصص .. يحرص اصحابه على استصفاء الدين من مرتبة الطقوسية الى مرتبة الحب فتكون العبادة عندهم حبا لا طقسا .

وهم يبحثون عن الحقيقة لا لينقضوا بها الشريعة وانما ليؤكدوها ويزيدوها تثبيتا .. والصوفي الحق سلوكه عين الشريعة وان هام قلبه مع الحقيقة .

ومع ذلك يجب ان نعترف ان الصوفي السالك يمكن ان يضل وتختلط عليه الخطى ويكون ضرره اكثر من نفعه

والقائلون بان اودية الصوفية هي اودية المهالك .. عندهم بعض الحق .. فالصوفي سالك في بحار الغيب . وهو لهذا معرض لكل الاخطار واهون هذه الاخطار .. الغرق في التيه .. والجذب .. وذهاب العقل .

ولكن الناجي الفائز في هذه المسالك هو في مرتبة الرسل .. وهو الناطق بالدرر المتحدث بالجوهر .

ونجد هذه الدرر والجواهر في تراث الصوفية الذي خلفه لنا الائمة العظام .. ولن نجد الواصل الحق منهم يقول : «انا الله» .. بل يقول : «هو الله» .. فهذه نهاية

المطاف في رحلة الحج في دروب الغيب .

«هو الله»

«هو»

كلمة «هو»

التي لا تعني اكثر من مجرد اشارة الى ما تعجز عنه جميع الالفاظ والعبارات .. وما لا تحيط به اللغات

«هو»

محض اشارة

ثم تسكت الالسن .. وتجف الاقـــلام .. وترفـع الصحف .. ثم لا تبقى الا العينان تدمعان بما لا سبيل الى التعبير عنه .

سبحانه وتعالى عما يصفون .

فهو لا يوصف .. وما وصف نفسه الا تنزلا لتدركه افهامنا .. وما اطلق علـى نفسه الاسماء الا تنزلا منــه لندعوه .

ولكنه فوق الاسماء والصفات .. فلا هو روح ولا هو جسد ولا هو مادة ولا هو صورة ولا هـو معنى ولا هـو فكرة ولا هو نفس ولا هو شيء .. ولا هو بمن يحـل في زمان ولا هو بمن يتحيز في مكان ولا هو بمن يتحـد او

يمتزج او ينقسم او يتعدد .. انما هو غير كل هذا .

وهو متعال على كل ما نعرف .

وهو غيب الغيب .

وغاية ما يصل اليه العقـــل في تصور الله هو .. البهت .. والحيرة .. والعجز ..

وذروة المعرفة هي العجز عن المعرفة لهذا الامر الذي يملأ القلب ولا يجد له اللسان وصفا ولا تعبيرا .

لا سبيل اليه الا بالاشارة .

ولهذا حفل القرآن بالاشارات .. الم .. الر .. حم .. ن .. ص .. ق .. وذلـك حينما تقطعت انفاس العبارات عن بلوغ مراميــه .. فلم تبق الا الايمــاءة .. والحروف المرتجفة التي تشير الى الابهام .

«هو»

نهاية الرحلة التي يحج فيها العقل الى الحقيقة .

وهو اذ يبلغها .. لا يبقى له الا ان يطوف عريان العقل خاشع القلب .. مسلم الحواس .. وقد اسلم الفعــل للفاعـل .. واسلمت الارادة للمريـد .. واسلمت القوة للقوي .. واسلم الحول لمن لا حول ولا قوة الا به .

الفهرس

خاص بصفحة

DR : MOSTAFA MAHMOUD